

عِلْمُ الدِّقَاعِيَّاتِ
المحاضرة ٧: مَوْثُوقِيَّةُ الإِذْرَاكِ الحَسِّيِّ
أ.ر. سي. سبرول

نُتَابِعُ الآنَ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّقَاعِيَّاتِ المَسِيحِيَّةِ، وَنَدْرُسُ الآنَ عَنَاصِرَ المَعْرِفَةِ لِعِلْمِ الإِيِسْتِيْمُولُوجِيَا، الَّتِي هِيَ ضَرْوِيَّةٌ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى دِفَاعِ سَلِيمٍ عَن حَقِّ الإِيمَانِ بِوُجُودِ اللهِ. تَنَاوَلْنَا أَوَّلًا قَانُونَ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. وَفِي مُحَاضَرَتِنَا المَاضِيَّةِ، تَنَاوَلْنَا قَانُونَ السَّبَبِ وَالتَّيَجَّةِ، أَوْ قَانُونَ السَّبَبِيَّةِ. وَحَرَصْنَا عَلَى إِظْهَارِ أَنَّ التَّعْرِيفَ السَلِيمَ مُهِمٌّ، وَأَنَّ قَانُونَ السَّبَبِيَّةِ يُعَرَّفُ كالتَّالِي: "كُلُّ نَتِيَجَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا سَبَبٌ يَسْبِقُهَا".

وَدَكَّرْتُ أَنَّنَا سَنَتَنَاوَلُ اليَوْمَ بِأَكْثَرِ تَمَعْنِ التَّحْلِيلِ التَّفْدِيِّ لِلسَّبَبِيَّةِ، الَّذِي قَدَّمَهُ الفَيْلسُوفُ الاسْكُتْلَنْدِيُّ فِي القَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، دَافِيدِ هِيُوم. دَافِيدِ هِيُوم، فِي بَحْثِهِ فِي المَسَائِلِ المُتَعَلِّقَةِ بِالسَّبَبِيَّةِ، أَدَلَّى بِبَعْضِ المَلاحِظَاتِ شَدِيدَةِ الأَهْمِيَّةِ عَنِ السَّبَبِ وَالتَّيَجَّةِ. وَفِي إِطَارِ تَحْلِيلِهِ قَالَ: "مَا نُلَاحِظُهُ عِنْدَمَا نَرَى الأَشْيَاءَ تُحْدُثُ مِنْ حَوْلِنَا، هُوَ مَا دَعَاهُ بِالعَلَاقَاتِ العِيتَادِيَّةِ - العَلَاقَاتِ العِيتَادِيَّةِ. وَاسْتُخْدِمَ مُصْطَلَحًا آخَرَ هُوَ عِلَاقَاتُ التَّجَاوُرِ. فَإِذَا كُنْتَ تَمْلِكُ مَنْزِلًا أَوْ قِطْعَةً أَرْضٍ، فَالْمَنْزِلُ الوَاقِعُ بِجَوَارِ أَرْضِكَ يَكُونُ مُجَاوِرًا لَكَ، لِأَنَّهُ بِجَانِبِهِ تَمَامًا. إِذَنْ، مَا يَقَعُ بِجَانِبِ الشَّيْءِ يَكُونُ مُجَاوِرًا لَهُ".

يَقُولُ دَافِيدِ هِيُومُ إِنَّنَا نَرَى أَحْدَانًا تَقَعُ فِي العَالِمِ الخَارِجِيِّ، وَنَرَى حَدَثًا تَلُو الآخَرَ، فَتَفْتَرِضُ أَنَّ الحَدَثَ الأَوَّلَ هُوَ سَبَبُ الَّذِي تَلَاهُ، لِأَنَّهُمَا يَأْتِيَانِ مُتتَالِيَيْنِ بِاسْتِمْرَارٍ. فَمَثَلًا، نَرَى بِاسْتِمْرَارٍ الأَمْطَارَ تَتَسَاقَطُ. وَعِنْدَمَا تَتَسَاقَطُ الأَمْطَارُ، يَتَبَلَّلُ العُشْبُ. إِذَنْ، ثَمَّةُ عِلَاقَةٌ عِيتَادِيَّةٌ بَيْنَ تَسَاقُطِ الأَمْطَارِ وَتَبَلُّلِ العُشْبِ. يَحْدُثُ هَذَا بِإِنْبِطَاحٍ أَوْ بِاسْتِمْرَارٍ حَتَّى إِنَّنَا نَسْتَنْتِجُ أَنَّ سَبَبَ تَبَلُّلِ العُشْبِ هُوَ تَسَاقُطُ الأَمْطَارِ الَّتِي سَبَقَتْهَا.

سَتَنْظُرُونَ إِلَيَّ وَتَقُولُونَ: "أَهْناكَ مَنْ يَسْأَلُ عَمَّا إِذَا كَانَتْ الأَمْطَارُ هِيَ سَبَبُ تَبَلُّلِ العُشْبِ؟ الكُلُّ يَعْلَمُ أَنَّ المَطَرَ هُوَ الَّذِي يُسَبِّبُ نَتِيَجَةَ تَبَلُّلِ العُشْبِ". حَسَنًا، يَخْبِرُنَا العَادِيَّةُ، نُفَكِّرُ هَكَذَا، لِأَنَّ هَذَا بِالتَّأَكِيدِ مَا تَبْدُو عَلَيْهِ الأُمُورُ عِنْدَمَا نُلَاحِظُهَا بِالْعَيْنِ المُجَرَّدَةِ، وَلَأنَّنَا اعْتَدْنَا عَلَى التَّفَكِيرِ هَكَذَا. لَكِنْ هَلْ تَأَكَّدْنَا مِنْ أَنَّ مَا بَيْنَ تَسَاقُطِ الأَمْطَارِ وَتَبَلُّلِ العُشْبِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سَبَبٌ آخَرٌ عَيْرٌ مَنظُورٌ عَيْرُ الأَمْطَارِ، تَدخُلُ فِي المُنتَصَفِ، وَهُوَ السَّبَبُ الحَقِيقِيُّ وَرَاءَ تَبَلُّلِ العُشْبِ؟

مُجَدِّدًا، قَدْ تَبْدُو هَذِهِ افْتِرَاضَاتٍ سَخِيفَةً لِلْعَايَةِ. فَالْأَمْرُ أَشْبَهُ بِتَخْمِينِ وَجُودِ كائِنَاتٍ مِنَ الجُنُبِ الأَخْضَرِ فَوْقَ سَطْحِ القَمَرِ. لَكِنْ مِنْ مَنظُورِ فِلْسَافِيٍّ، وَلا سِيَّما فِي القَرْنَيْنِ السَّابِعِ عَشَرَ وَالثَّامِنِ عَشَرَ، حِينَ قَامَ الفَلَسِيفَةُ بِتَحْلِيلِ نَاقِبِ

لِفَهْمِ الْوَاقِعِ الْخَارِجِيِّ، وَالْقُوَى الَّتِي تُسَبِّبُ كُلَّ مَا يَحْدُثُ، مِثْلَ مَدْرَسَةِ دِيكَارْتِ، وَنَظَرِيَّتِهِ عَنِ التَّفَاعُلِيَّةِ، وَفَلَسَفَةِ آخَرِينَ أَمْثَالِ سِيْنُوزَا وَلَايْبِنْتْسْ، وَالْمَدْرَسَةِ الْعَقْلَانِيَّةِ، الَّذِينَ افْتَرَضُوا وُجُودَ أَسْبَابٍ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ لِمَا يُمَكِّنُ مِلْاحَظَتَهُ تَجْرِيْبِيًّا. وَهَكَذَا، أَثِيرَ جَدَلٌ كَبِيرٌ فِي الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ حَوْلَ الْأَسْبَابِ الْفَعْلِيَّةِ.

سَأَقْدِمُ الْآنَ مِثَالًا تَوْضِيحِيًّا. مَا هُوَ سَبَبٌ إِصَابَتِنَا بِالْأَمْرَاضِ مِنْ أَنْ لَأَخَرَ؟ ضَعُوا فِي اعْتِبَارِكُمْ أَنَّنَا عِنْدَمَا نَمْرُضُ الْيَوْمَ، نُجْرِي فَحْصَ دَمٍ أَوْ مِسْحَةَ لِلْحَلْقِ. ثُمَّ تَوْضِعُ هَذِهِ الْمِسْحَةَ تَحْتَ الْمِجْهَرِ، فَنَكْتَشِفُ أَنَّ كَائِنَاتٍ حَيَّةً أَوْ أَجْسَامًا مُضَادَّةً تُصِيبُنَا بِالْأَمْرَاضِ، وَهِيَ غَيْرُ مَنْظُورَةٍ بِالْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ. وَدُونَ اكْتِشَافِ الْمِجْهَرِ، لَمْ نَكُنْ لِنَتَخَيَّلَ قَطُّ أَنَّ أَسْبَابَ أَمْرَاضِنَا هِيَ الَّتِي نَعْرِفُهَا الْآنَ. فَمُنْذُ زَمَانٍ لَيْسَ بِطَوِيلٍ، تَحَدَّثَ النَّاسُ عَنْ أَرْوَاحِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَجْتَاخُ أَجْسَادَنَا، وَتَتَجَوَّلُ صُغُودًا وَزُؤُولًا فِي ذِرَاعِينَا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَهَذَا قَبْلَ اسْتِخْدَامِ الْمِجْهَرِ. وَبِالتَّالِي، كَشَفَ لَنَا الْمِجْهَرُ عَالَمًا جَدِيدًا تَمَامًا مِنَ الْحَقَائِقِ الْمَوْجُودَةِ بِالْفِعْلِ، الَّتِي تُوَثَّرُ فِي حَيَاتِنَا، وَتَتَطَايَرُ فِي أَرْجَاءِ هَذِهِ الْعُرْفَةِ الْآنَ، لَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ رُؤْيَتَهَا. نَقُولُ أَحْيَانًا: "لَقَدْ التَّقَطْنَا جُرْثُومَةً أَوْ مِيكَرُوبًا". أَصِبتُ بِالْإِنْفِلُونْزَا الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي، وَقَالَ لِي أَحَدُهُمْ فِي الْيَوْمِ التَّالِي إِنَّ هَذِهِ كَانَتْ جُرْثُومَةً تَعِيشُ فَقَطُّ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً. أَجَبْتُهُ: "أَطْنُ إِذْنُ أَنَّ هَذِهِ الْجُرْثُومَةَ الَّتِي تَعِيشُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً تَحْتَاخُ إِلَى سَاعَةِ يَدٍ جَدِيدَةٍ لِأَنَّهَا لَا زَالَتْ مَوْجُودَةً". فَإِنَّا نَتَحَدَّثُ عَنِ الْجَرَائِمِ، وَعَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُصِيبُنَا بِالْمَرَضِ. لَكِنِ قَالَ هِيَوْمٍ مِنْ وَاقِعِ تَحْلِيلِ عِلْمِيٍّ إِنَّ أُمُورًا كَثِيرَةً تُحْدِثُ مِنْ حَوْلِنَا، وَلَا نُدْرِكُهَا - أَيُّ لَا نَرَاهَا الْبَتَّةَ - لَكِنَّا نَفْتَرِضُ أَنَّهُ لِأَنَّ شَيْئًا مَا تَلَا الْآخَرَ، فَالشَّيْءُ الْأَوَّلُ هُوَ سَبَبُهُ.

وَالْفِكْرُ السَّبَبِيُّ، أَيُّهَا السَّادَةُ، يَكْمُنُ فِي لُبِّ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، وَفِي لُبِّ الطَّبِّ. فَعِنْدَمَا نُصَابُ بِالْمَرَضِ، وَنَذْهَبُ إِلَى الطَّبِيبِ، طَالِبِينَ تَشْخِيصًا لِحَالَتِنَا، نَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُحَدِّدَ سَبَبَ مَرَضِنَا. فَتَحْنُ نُرِيدُ أَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْ تَحْدِيدِ السَّبَبِ، حَتَّى يَتَوَصَّلَ إِلَى عِلَاجِ يَدَاوِي الْمَرَضِ. لَكِنِ إِذَا لَمْ نَتِمَكَّنْ مِنْ تَحْدِيدِ الْعِلَّةِ، وَلَمْ نَتَوَصَّلْ إِلَى تَشْخِيصِ سَلِيمٍ، سَيَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ جِدًّا إِيجَادُ الْعِلَاجِ الْمُنَاسِبِ. لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ فِي عِلْمِ الْأَحْيَاءِ وَالْكِيمِيَاءِ وَالْفِيْزِيَاءِ وَالْفَلَكِ، مَبْدَأُ السَّبَبِيَّةِ مُسَلَّمٌ بِهِ دَائِمًا. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، الْفِكْرُ السَّبَبِيُّ هُوَ لُبُّ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ.

رَبَّمَا نَسْتَطِيعُونَ تَخْيِيلَ الْأَزْمَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، حِينَ قَامَ هَذَا الْعَالَمُ الْبَارِعُ فِي اسْكُتْلَنْدَا بِإِثَارَةِ الشُّكُوكِ حَوْلَ الْقُدْرَةِ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى تَحْدِيدِ الْأَسْبَابِ. وَفِي تَحْلِيلِ دَافِيدِ هِيَوْمِ، اسْتِخْدَمَ مِثَالًا تَوْضِيحِيًّا شَهِيرًا. نُسَمِّي هَذَا الْمِثَالَ التَّوْضِيحِيَّ بِمِثَالِ كُرَّةِ الْبِيلْيَارْدُو. تَخَيَّلُوا مَعِي طَاوِلَةَ بِلْيَارْدُو، بِهَا جُيُوبٌ لِلْكَرَاتِ. وَفِي وَسَطِ الطَّاوِلَةِ تُوْجَدُ الْكُرَّةُ الْبَيْضَاءُ. ثُمَّ تُوْجَدُ الْكُرَّةُ الْمُسْتَهْدَفَةُ (وَنُسَمِّيهَا الْكُرَّةَ الثَّامِنَةَ). وَالْهَدَفُ هُوَ أَنْ يُسْفِطَ لَاعِبُ الْبِيلْيَارْدُو الْكُرَّةَ رَقْمَ ثَمَانِيَّةٍ فِي جَيْبِ الطَّاوِلَةِ. وَلِذَا، يَلْتَقِطُ عَصَا الْبِيلْيَارْدُو، وَيَشْحَدُ نَهَايَتَهَا، ثُمَّ يُصَوِّبُهَا نَحْوَ الْكُرَّةِ الْبَيْضَاءِ، هَلْ هَذَا وَاضِحٌ؟ ثُمَّ بِحَرَكَةٍ مِنْ ذِرَاعِهِ، يَهْزُ عَصَا الْبِيلْيَارْدُو، وَيَحْرُكُهَا، فَتَضْرِبُ عَصَا الْبِيلْيَارْدُو الْكُرَّةَ الْبَيْضَاءَ، نَاقِلَةً إِلَيْهَا عَلَى

الأرجح فُوَّةً، تُحَرِّكُ الكُرَّةَ البِيضَاءَ. فَتَتَدَحْرَجُ الكُرَّةُ البِيضَاءُ عَلَى الطَّائِلَةِ إِلَى أَنْ تَصْطَدِمَ بِالكُرَّةِ المُسْتَهْدَفَةِ، وَهِيَ الكُرَّةُ ثَمَانِيَّةٌ. بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً، تَتَحَرِّكُ الكُرَّةُ ٨ ثَمَانِيَّةً. وَإِنْ كَانَ تَصَوُّبُنَا سَلِيمًا، سَتَسْقُطُ الكُرَّةُ المُسْتَهْدَفَةُ فِي النِّهَايَةِ فِي جَيْبِ الطَّائِلَةِ.

لَعِبْتُ أَفْعَالٌ بَدَنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ دَوْرًا فِي هَذِهِ اللَّعْبَةِ. فَقَدْ التَّقَطْتُ عَصَا البِلْيَارْدُو، وَصَوَّبْتُهَا، وَحَرَّكْتُ ذِرَاعِي. وَبِمَا أَنَّ ذِرَاعِي مُتَّصِلَةٌ بِعَصَا البِلْيَارْدُو، تَحَرَّكْتَ العَصَا. وَعِنْدَمَا حَرَّكْتُ عَصَا البِلْيَارْدُو، ضَرَبْتُ الكُرَّةَ البِيضَاءَ بِعَصَا البِلْيَارْدُو، ثُمَّ اصْطَدَمَتِ الكُرَّةُ البِيضَاءُ بِالكُرَّةِ المُسْتَهْدَفَةِ. وَلِهَذَا، نَفْتَرِضُ طَوَالَ الوَقْتِ وَجُودَ عِلَاقَةِ سَبَبِيَّةٍ مُتَسَلِّسَةٍ. لَكِنْ هَلْ رَأَى أَحَدٌ حَقًّا فُوَّةً غَيْرَ مَنْظُورَةٍ تَنْتَقِلُ مِنْ نِهَآيَةِ عَصَا البِلْيَارْدُو إِلَى الكُرَّةِ البِيضَاءِ؟ وَهَلْ رَأَى أَحَدٌ الفُوَّةَ تَنْتَقِلُ مِنَ الكُرَّةِ البِيضَاءِ إِلَى الكُرَّةِ المُسْتَهْدَفَةِ؟ كَلَّا، بَلْ تَرَوْنَ فِعَالًا تَلُو الآخَرَ. وَهَذَا مَا نُسَمِّيهِ بِالعِلَاقَةِ الِاعْتِيَادِيَّةِ، أَوْ عِلَاقَةِ التَّجَاوُرِ. قَالَ هِيُومٌ إِنَّنَا لَا نَرَى السَّبَبِيَّةَ، بَلْ نَرَى أَفْعَالًا مُتَعَاقِبَةً، فَنفْتَرِضُ وَجُودَ صِلَةٍ أَوْ عِلَاقَةٍ سَبَبِيَّةٍ بَيْنَ تِلْكَ الأَفْعَالِ المُنْفَصِلَةِ.

تَعْرِفُونَ القِصَّةَ القَدِيمَةَ عَنِ المُزَارِعِ الذِّي يَسْتَيْقِظُ كُلَّ صَبَاحٍ بِأَكْرَبِ سَبَبٍ صِيَاحِ الدِّيَكِ عِنْدَ بُرُوعِ الفَجْرِ. فَقَالَ: "كُلَّمَا صَاحَ الدِّيَكُ، تُثَرِّقُ الشَّمْسُ، فَيَحْتَرِقُ صَوُّهَا عَيْنِي عِبْرَ النَّافِذَةِ، فَاسْتَيْقِظُ. وَلِذَا، فَإِنْ أَرَدْتُ مَنَعَ الشَّمْسِ مِنَ الشُّرُوقِ، عَلَيَّ قَتْلُ هَذَا الدِّيَكِ". فَقَدْ فَكَّرَ قَائِلًا: "إِذَا امْكَنِّي قَتْلُ الدِّيَكِ، سَأَمْنَعُ شُرُوقَ الشَّمْسِ"، لِأَنَّ الدِّيَكِ يَصِيحُ كُلَّ يَوْمٍ، فَتُثَرِّقُ الشَّمْسُ. وَلِهَذَا افْتَرَضَ أَنَّ الدِّيَكِ هُوَ الذِّي يُسَبِّبُ شُرُوقَ الشَّمْسِ. وَهَذَا مِثَالٌ لِمُعَالِظَةِ بَسِيطَةٍ تَتَعَلَّمُهَا مِنْ عِلْمِ المَنْطِقِ، تُسَمَّى مُعَالِظَةُ *post hoc ergo propter hoc*، أَيُّ مُعَالِظَةِ "بَعْدَهُ، إِذْنُ بِسَبَبِهِ". لَكِنَّ مُجَرَّدَ حُدُوثِ شَيْءٍ مَا بَعْدَ شَيْءٍ آخَرَ لَا يَعْنِي وَجُودَ عِلَاقَةٍ بَيْنَ الشَّيْءِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي. فَلَا يُمَكِّنُنَا افْتِرَاضُ أَنَّهُ لِمُجَرَّدِ حُدُوثِ شَيْءٍ مَا بَعْدَ الآخَرَ، فَإِنَّ بَيْنَهُمَا صِلَةً سَبَبِيَّةً. هَذِهِ نَظْرَةٌ عَامَّةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَلَى تَحْلِيلِ دَافِيدِ هِيُومِ لِمَشَاكِلِ السَّبَبِيَّةِ.

كثيرون افترضوا - نتيجة سوء فهمهم للسببية - أن تحليل هيوم هذا نقض قانون السببية. وهذا غير صحيح. فقد توصل هو نفسه إلى الاستنتاج التالي: "بسبب عجزنا عن معرفة سبب نتيجة معينة، نستنتج أن أي شيء يمكن أن يسبب أي شيء آخر". لا بأس أن يقول ذلك. لكنه لم يقل إن لا شيء سبب حركة كرة البلياردو. فقولنا إن "ثمة قوى تعمل هنا لكنني لا أستطيع رؤيتها"، أو: "لا أعلم ما الذي سبب الحركة"، يختلِف تمامًا عن قولنا إن "لا شيء سبب هذه الحركة".

مجددًا، عندما نطبق قانون السببية على العالم الحارِجِي، يجب أن نواجه محدوديات الإدراك الحسِّي التي تحدت عنها دافيد هيوم، لكن علينا ألا نتخلى عن قانون السبب والنتيجة، لأنه لا يزال من المؤكد أنه إذا كان شيء ما نتيجة،

فَلَا بَدَّ مِنْ أَنَّ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَهُ سَبَبُهُ. يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا صَحِيحًا، بَعْضُ النَّظَرِ عَنِ عَدَدِ التَّجَارِبِ الَّتِي مُجْرِبُهَا، لِأَنِّي أَذْكُرْكُمْ مُجَدِّدًا بِأَنَّ هَذِهِ حُجَّةٌ شَكْلِيَّةٌ.

تَذَكَّرُوا أَنَّ الْمَبْدَأَ الثَّالِثَ الَّذِي تَحَدَّثْتُ عَنْهُ هُوَ مَبْدَأُ الْمُتَوْقِئَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلإِدْرَاكِ الْحَسِّيِّ. وَاجْتَهَدْتُ لِتَوْضِيحِ أَنَّ حَوَاسِنَا لَا تَتَمَتَّعُ بِإِدْرَاكِ كَامِلٍ لِلْوَاقِعِ. وَلِهَذَا نَسْتَعْمِلُ أَدَوَاتٍ تَزِيدُ مِنْ قُدْرَتِنَا عَلَى إِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ، كَالْتِلْسَكُوبِ وَالْمَجْهَرِ، كَمَا ذَكَرْتُ قَبْلًا. وَتَذَكَّرُوا أَنِّي قَدَّمْتُ مِثَالَ مِجْدَافِ أَوْعُسْطِينُوسَ، الَّذِي يَبْدُو مَائِلًا فِي الْمِيَاهِ، وَمِثَالَ رَأْسِ أَحَدِهِمُ الَّتِي تَبْدُو بِمَجْمُوعِ ظُفْرِ إِبْهَامِي، لِأَنِّي أَسْتَطِيعُ حَجَبَ رَأْسِهِ عَنِ بُعْدِ يَدَيْهَا. وَأَشْرْتُ إِلَى فَهْمِنَا لِمَبَادِي إِدْرَاكِ الْأَبْعَادِ، وَإِدْرَاكِنا لِمَحْدُودِيَّةِ قُدْرَاتِنَا الإِدْرَاكِيَّةِ.

وَقَدْ أَظْهَرَ دَاوِيدُ هِيُومُ تِلْكَ الْمَحْدُودِيَّةَ، وَأَنَّنَا عَاجِزُونَ عَنِ سَبْرِ غَوْرِ الْعَالَمِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، حَيْثُ تَعْمَلُ عَلَى الْأَرْجَحِ كَافَّةً أَنْوَاعَ الْقُوَى غَيْرِ الْمَنْظُورَةِ، وَأَهْمُهَا قُوَّةُ اللَّهِ. مُجَدِّدًا، يُخْبِرُنَا الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِأَنَّنا بِاللهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ. لِتَأْخُذِ الْفِعْلَ الثَّانِي. نَحْنُ نَتَحَرَّكُ بِاللهِ. أَحَدُ الْإِفْتِرَاضَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي الْحَقِّ الْمَسِيحِيِّ هُوَ أَنَّ لَا شَيْءَ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِي هَذَا الْعَالَمِ دُونَ قُوَّةِ اللَّهِ. رُبَّمَا أَقُولُ: "لَدَيْ الْقُدْرَةِ عَلَى إِسْقَاطِ هَذِهِ الطَّبْشُورَةِ أَوْ تَحْرِيكِهَا". لَكِنِ فِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ، أَنَا مُجَرَّدُ سَبَبٍ ثَانَوِيٍّ، لِأَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحَرِّكَ وَلَوْ إِبْصَعِي دُونَ قُوَّةِ اللَّهِ. وَقُوَّةُ اللَّهِ غَيْرُ مَنْظُورَةٍ. إِذَنْ، الْوَجْهَ الْآخَرَ مِنَ الْعَمَلَةِ هُوَ - وَهَذِهِ حُجَّةٌ تَتَّفِقُ مَعَ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ بِوُجُودِ اللَّهِ - أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نُوجَدَ آيَةً قُوَّةِ دُونَ اللَّهِ. وَاللَّهُ هُوَ مَصْدَرُ الْقُوَّةِ لِآيَةٍ حَرَكَةٍ. وَلِأَنَّهُ غَيْرُ مَنْظُورٍ، فَلَا يُمَكِّنُ لِآيٍ قَدْرٍ مِنَ الْبَحْثِ التَّجْرِبِيِّ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْحَقِيقَةِ، أَنْ يَصِلَ إِلَى الْحَقِيقَةِ بِشَأْنِ حَرَكَةِ الْأَشْيَاءِ.

مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ، لَا أَعَانِي مُشْكَلَةً مَعَ تَحْلِيلِ دَاوِيدِ هِيُومِ، الَّذِي أَظْهَرَ مَحْدُودِيَّةَ الإِدْرَاكِ الْحَسِّيِّ الْبَشَرِيِّ. لَكِنَّهُ لِلْأَسْفِ تَمَادَى فِي تَطْبِيقِ هَذَا التَّحْلِيلِ إِلَى حَدِّ مَحَاوَلَةِ التَّشْكِيكِ فِي أَيِّ عِلْمٍ يَعْتَمِدُ عَلَى الإِدْرَاكِ الْحَسِّيِّ. وَفِي الْوَاقِعِ، قِيلَ عَنْ هِيُومِ إِنَّهُ مَقْبَرَةُ التَّجْرِبِيَّةِ الْبَرِيْطَانِيَّةِ. وَإِيمَانُويل كَانَطُ، الَّذِي جَاءَ بَعْدَ هِيُومِ، قَالَ إِنَّ تَحْلِيلَ هِيُومِ الشُّكُوكِيِّ حَوْلَ إِمْكَانِيَّةِ إِدْرَاكِ الْقُوَى السَّبَبِيَّةِ هُوَ الَّذِي أَيْقَظَ كَانَطُ مِمَّا دَعَاهُ "السُّبَاتِ الدُّوَجْمَاتِي". ثُمَّ كَرَّسَ كَانَطُ مَا تَبَقِيَ مِنْ حَيَاتِهِ الْمِهْنِيَّةِ لِإِنْقَاذِ الْعِلْمِ مِنَ الشُّكُوكِيَّةِ الْبَحْثِيَّةِ؛ لِأَنَّنَا إِنَّا نَقْضُنَا السَّبَبِيَّةَ، تَكُونُ هَذِهِ نَهَايَةَ لَيْسَ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ بِوُجُودِ اللَّهِ فَحَسْبُ، بَلِ نَهَايَةَ الْعِلْمِ أَيْضًا. وَهَكَذَا، سَعَى كَانَطُ إِلَى اسْتِعَادَةِ صِلَاحِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ، وَالْمُتَوْقِئَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلإِدْرَاكِ الْحَسِّيِّ. أَكْرَرُ، لَا تَسْتَطِيعُ حَوَاسِنَا أَنْ تَمُدَّنِي بِنَظَرَةٍ دَقِيقَةٍ عَنِ الْوَاقِعِ، لَكِنَّ الصِّلَةَ الْوَحِيدَةَ بَيْنَ دَوَاحِلِ عَقْلِي وَفِكْرِي، وَبَيْنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، وَالصِّلَةَ الْوَحِيدَةَ بَيْنَ عَقْلِي وَبَيْنَكُمْ هِيَ حَوَاسِنَا. فَجَسَدِي هُوَ الْحِسْرُ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ عَقْلِي وَالْعَالَمِ.

مَا هُوَ الْعَقْلُ؟ اعْتَادَ د. جِيرُسْتِنِرَ أَنْ يُجِيبَ عَنْ سُؤَالٍ "مَا هُوَ الْعَقْلُ؟" بِلُغَةٍ طَرِيفَةٍ يُبَيِّنُ بِهَا أَنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ مَادِّيًّا، وَيُبَيِّنُ وُجُودَ فَرْقٍ جَوْهَرِيٍّ بَيْنَ الْمَادِّيِّ وَالْحُجْسَدِيِّ، وَغَيْرِ الْمَادِّيِّ. فَالْفِكْرَةُ الَّتِي تَدُورُ فِي الْعَقْلِ قَدْ تَكُونُ مُتَّصِلَةً بِسَبَبِ مَادِّيٍّ مِنَ الْمَوَادِّ الْكِيمِيَاءِيَّةِ، وَالْمُحَفَّرَاتِ، وَالتَّشَابُهَاتِ الْعَصَبِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، عَلَى الصَّعِيدِ الْمَادِّيِّ لِلدِّمَاغِ. لَكِنَّ قَوْلَنَا إِنَّ الدِّمَاغَ الْمَادِّيَّ يُسَبِّبُ التَّفَكِيرَ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَن قَوْلِنَا إِنَّ فِعْلَ التَّفَكِيرِ نَفْسِهِ مَادِّيٌّ. وَهَذَا غَيْرُ صَائِبٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِذَنْ، أَقُولُ إِنَّ تَفَكِيرِي وَإِدْرَاكِي الْوَاعِي لِلْأُمُورِ أَمْرٌ غَيْرٌ مَادِّيٌّ. لَكِنَّ لَا يُمَكِّنِي التَّفَكِيرُ فِيكُمْ، أَوْ فِي الْعَالَمِ، أَوْ فِي أَيِّ شَيْءٍ خَارِجٍ عَقْلِي، إِلَّا مِنْ خِلَالِ حَوَاسِّي. إِذَنْ، بِقَدْرِ كَوْنِ حَوَاسِّي غَيْرِ كَامِلَةٍ، لَكِنَّهَا قَنَاتِي الْوَحِيدَةُ إِلَى الْوَاقِعِ، الْوَاقِعِ الْمَادِّيِّ الْخَارِجِيِّ. يُمَكِّنِي الِاسْتِعْرَافُ فِي التَّفَكِيرِ، وَالتَّوَصُّلُ إِلَى شَيْءٍ أَنْوَاعِ الِاسْتِنْتِاجَاتِ بِشَأْنِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ بِالْخَارِجِ، لَكِنَّ لَنْ أَحْظِيَ بِأَيِّ تَوَاصُلٍ فِعْلِيٍّ مَعَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ إِلَّا مِنْ خِلَالِ حَوَاسِّي.

لِهَذَا، مِنْ الْبَدِيهِيِّ فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثِ، وَفِي الدِّرَاسَاتِ الْكِتَابِيَّةِ، أَنْ نَعْمَلَ بِنَاءً عَلَى الْاِفْتِرَاضِ بِأَنَّ أَدَوَاتِنَا الْأَسَاسِيَّةَ، أَيَّ امْكَانِيَّاتِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي مَنَحَنَا اللَّهُ إِيَّاهَا، كَالْبَصَرِ، وَالسَّمْعِ، وَالتَّذَوُّقِ، وَالشَّمِّ، وَاللَّمْسِ، مَوْثُوقَةٌ بِمَا يَكْفِي عَلَى الْأَقْلِّ لِلتَّصَرُّفِ عَلَى أَسَاسِهَا. فَمُجَدِّدًا، حِينَ أَرَى الْإِشَارَةَ الْحُمْرَاءَ، قَدْ أُحْمِنُ أَنَّ رُوحًا شَرِيرًا رُبَّمَا سَبَّبَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّ هَذَا عَطْلٌ - وَهَذَا مُحْتَمَلٌ. لَكِنَّنِي أَثِقُ فِيهِ بِمَا يَكْفِي لِلضَّغْطِ عَلَى مَكْبَحِ السَّيَّارَةِ. هَذَا مَا قَصَدَهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، كَمَا ذَكَرْتُ سَابِقًا، بِقَوْلِ بَطْرُسَ: "لَسْنَا نُؤْمِنُ بِأَسَاطِيرَ أَوْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةٍ، بَلْ نُؤْمِنُ بِمَا رَأَيْنَاهُ بِأَعْيُنِنَا وَسَمِعْنَاهُ بِأَذَانِنَا." فَالْمَوْثُوقِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلِادْرَاكِ الْحَسِّيِّ، بَلْ وَافْتِرَاضُ قُدْرَتِنَا عَلَى رُؤْيَةِ عِلَاقَاتٍ سَبَبِيَّةٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ، هُوَ أَمْرٌ مُسَلَّمٌ بِهِ عَبْرَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. وَبِالتَّالِي، هَذِهِ الْمَبَادِيءُ الثَّلَاثَةُ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّفَاوُضِ فِي الدِّفَاعِيَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ. وَهِيَ، مُجَدِّدًا: (أَوَّلًا) قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، (ثَانِيًا) قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ، (ثَالِثًا) الْمَوْثُوقِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلِادْرَاكِ الْحَسِّيِّ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سِنْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقُدَيْسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِاصْلَاحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلَّفٌ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهَوْتِيُونُ" و"أَدَهْسِنِي الْأَلَمُ".